

تفسير البحر المحيط

@ 467 متقدماً على خلق السماء ، ودحو الأرض غير خلقها ، وقد تأخر عن خلق السماء ، وقد أورد على هذا أن جعل الرواسي فيها والبركة . وتقدير الأقوات لا يمكن إدخالها في الوجود إلا بعد أن صارت الأرض موجودة . وقوله : { وَبَارَكْ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا } مفسر بخلق الأشجار والنبات والحيوان فيها ، ولا يمكن ذلك إلا بعد صيرورتها منبسطة . ثم قال بعد : { ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ } ، فافتضى خلق السماء بعد خلق الأرض ودحوها . وأورد أيضاً أن قوله تعالى للسماء وللأرض : { ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا } ، كناية عن إيجادهما ، فلو سبق إيجاد الأرض على إيجاد السماء لاقتضى إيجاد الموجود بأمره للأرض بالإيجاد ، وهو محال ، وقد انتهى هذا الإيراد . . .

ونقل الواحد في البسيط عن مقاتل أنه قال : خلق □ السماء قبل الأرض ، وتأول قوله : { ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ } قبل أن يخلق الأرض ، فأضمر فيه كان ، كما قال تعالى : { إِنَّ يَسْرُوقُ فَقَدَسَّرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَدِيلٍ } معناه : إن يكن سرق . انتهى . وقال أبو عبد □ الرازي : فقدّر ثم كان قد استوى جمع بين ضدين ، لأن ثم تقتضي التأخر ، وكان تقتضي التقدم ، فالجمع بينهما يفيد التناقض ، ونظيره : ضربت زيداً اليوم ، ثم ضربت عمراً أمس . فكما أن هذا باطل ، فكذلك ما ذكر يعني من تأويل ثم كان قد استوى ، قال : والمختار عندي أن يقال : خلق السماء مقدم على خلق الأرض . وتأويل الآية أن الخلق ليس عبارة عن التكوين ، والإيجاد يدل عليه قوله : { إِنَّ مَثَلِ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } ، وهذا محال ، لا يقال للشيء الذي وجد كن ، بل الخلق عبارة عن التقدير ، وهو في حقه تعالى حكمه أن سيوجد ، وقضاؤه بذلك بمعنى خلق الأرض في يومين ، وقضاؤه بأن سيحدث كذا ، أي مدة كذا ، لا يقتضي حدوثه ذلك في الحال ، فلا يلزم تقديم إحداث الأرض على إحداث السماء . انتهى . . .

والذي نقوله : أن الكفار وبخوا وقرعوا بكفرهم بمن صدرت عنه هذه الأشياء جميعها من غير ترتيب زمني ، وأن ثم لترتيب الأخبار لا لترتيب الزمان ، والمهلة كأنه قال : فالذي أخبركم أنه خلق الأرض وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها ، ثم أخبركم أنه استوى إلى السماء ، فلا تعرض في الآية لترتيب ، أي ذلك وقع الترتيب الزمني له . ولما كان خلق السماء أبداع في القدرة من خلق الأرض ، ألف الأخبار فيه بثم ، فصار كقوله : { ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا } بعد قوله : { فَلَا اقْتَحَمَ

الْعَقَبِيَّةَ { . ومن ترتيب الأخبار { ثُمَّ -ءَاتَيْدْنَا مُوسَى الْكِتَابَ } بعد قوله : {
قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ * وَيَكُون * قَوْلُهُ * تَعَالَى * فَقَالَ لَهَا
وَلِلْأَرْضِ } ، بعد إخباره بما أخبر به ، تصويراً لخلقهما على وفق إرادته تعالى ،
كقولك : رأيت الذي أثنيت عليه فقلت إنك عالم صالح ؟ فهذا تصوير لما أثنيت به وتفسير
له . فكذلك أخبر بأنه خلق كيت وكيت ، فحد ذلك إيجاباً لم يتخلف عن إرادته . ويدل على
أنه المقصود الإخبار بوقوع هذه الأشياء من غير ترتيب زمني قوله في الرعد : { اللَّسَّةُ
الَّذِي رَفَعَ * السَّمَاوَاتِ * بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرْوَنَهَا { الآية ، ثم قال بعد :
{ وَهَوَّاهُ * الَّذِي مَدَّ * الأَرْضَ * وَجَعَلَ فِيهَا رِوَاسِيَّ * وَأَنْزَلَ مِنْهَا *
وظاهر الآية التي نحن فيها جعل الرواسي ، وتقدير الأقوات قبل الاستواء إلى السماء وخلقها
، ولكن المقصود في الآيتين الإخبار بصدور ذلك منه تعالى من غير تعرض لترتيب زمني ، وما
جاء من ذلك مقصوراً على يومين أو أربعة أو ستة إنما المعنى في مقدار ذلك عندكم ، لا أنه
كان وقت إيجاب ذلك زمان . { فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ * سَمَآوَاتٍ } : أي صنعهن وأوجدهن ،
كقول ابن أبي ذؤيب : % (وعليهما مسرودتان قضاهما % .
داود أو صنع السوابع تبع .
) % .
.

وعلى هذا انتصب سبع على الحال . وقال الحوفي : مفعول ثان ، كأنه ضمن قضاهن معنى
صيرهن فعدها إلى مفعولين ، وقال الزمخشري : ويجوز أن يكون ضميراً مبهماً سبع سموات على
التمييز . ويعني بقوله مبهماً ،